فصل من كتاب

رحلة نحو البداية

بقلم كولن ولسون

أريد (١) أن أتحدث في الاساسيات وحدها : وأكثر الحقائق أساسية في طفولتي هي انني كنت طفلا فاسدا ومدللا . ورغم ان أمي لم تكن أصغر بنات أسرتها ، فقد كانت أول اشقائها وشقيقاتها السبعة في تقديم حفيد لوالديها ، حينما ولدتني في السادس والعشرين من حزيران (يونيه) عام ١٩٣١ . وبعد ثمانية عشر شهرا وصل أخي بأري ، وفي خلال تلك المدة كان عدد كبير من الاحفاد قد ولدوا ، فقد كان أخوالي وخالاني مشغولين بنفس العمل خلالها . ولكنني كأول حفيد حظيت بتدليل الجميع باستثناء خالتي « مود » التي تشاجرت مع الاسرة فيما بعد بسببي ، وقطعت كل علاقة لها بهم . وباعتباري أكبر الاحفاد سنا تعودت ان اكون اكثرهم قوة وان امارس عليهم وعلى اخي الصغير نوعا من السيطرة والسطوة ، وقد مال جدّاي لسبب ما الى اعتباري طفلا متميزا أيضا ، وانتقل اعتقادي هذا اليّ بالتالي . لقد قيل لي انني وسيم وجميل وذكي ، وكان هذا القول يتجسد في الكثير من الملاطفة والتقبيل ، ولكنني كرهت شدة اهتمام الآخرين بي (وهذا الاهتمام كان يعني في بلدة لايسنر ان يسلقوني) ويمكنني ان اذكر كيف كنت اصارع بقوة لكي اهرب من القبلات الكثيرة .

ولم يحدث الا منذ خمس سنوات فحسب ان تبينت لاول مرة أهمية هذا الاهتمام الشديد بي والالتفات اليّ في سنوات عمري الاولى . كان أحد اصدقائي الموسيقيين يحدثني عن افتقاره الى الثقة بنفسه وعن حيائه الشديد . وكنت في هذا الوقت اكتب كتابا يدعى « عصر الهزيمة The Age of Defeat » (٢) وهو هجوم على « زيف الافتقار الى المغزى » والاحساس بالسقوط والفشل ، والبعد عن التواضع أو الترفع عنه ، هذه المظاهر التي طفت على أدب القرن الماضي طغيانا شديدا . وكان من الواضح ان اختلاف وجهات نظرنا كان اختلافا بين الامزجة وليس بين الافكار . وقد حاولت أن أحدد هذا الاختلاف . فرغم انني أحمل في داخلي « قلقا » جوهريا متعلقا بالكون والخوف منه ومن احتمال أن تتكشف الحياة عن اضحوكة أو مزحة مرعبة ، فانني ابدو لنفسي كما لو كنت مقتنعا اقتناعا اساسيا بأن الحياة والحظ مقبلان عليّ وانهما يعتنيان بأمري . (وقد اقتبست بهذا الصدد وفي تعاطف قصة حكاها الكرمان عن جوته . فحينما كانا يتناقشان في مسألة القدر والتفاؤل اشار أحدهم لجوته قائلا ان القدر كان الى جانبه ، ولكن بفرض انه كان قد ولد سيىء الحظ ، فما الذي كان يحدث ؟ فقال جوته : « لا تكن غبيا . أتظنني على هذه الدرجة من الغباوة حتى اولد سيىء الحظ ؟ ») .

وسأل صديقي : « ولكن ، لماذا ؟ » وفي محاولتي للاجابة عليه بدهني الحل أو طرأ على ذهني . لانني كنت أول من ولدوا من احفاد الاسرة وحظيت بمزيد من تدليل جدي وحسد أبناء عمومتي وخئولتي ، وطالما حكت لي أمي انني قد « ولدت محظوظا » . ان احدى غرائب متناقضات هذا العالم هي ان خصائص تجربة من تجارب الحياة الحقيقية لا تشترك في شيء على الاطلاق مع خصائص قصة تحكى عن الذاكرة . وان حياة الناس الآخرين قد تكون « قصة » وقد تحمل بعض المميزات او الخصائص الملحمية او الرومانتيكية . ولكن الجلوس هنا ، الآن ، والنظر من النافذة او القراءة في كتاب ، يختلف عن ذلك ، فكل انسان يعرف ان الحاضر الخاص به ليس لحظة في قصة من القصص ، انه فقط « قائم » ، « كائن » . اننا لا ندرك حقا فكرة ان حياة كل فرد من الناس قد كانت على هذا النحو : كتلة مصمتة من الحاضر وصلبة ، وهي كتلة كالحصان لا يمكن كسرها ، ترفض ان تكشف عن اسرارها ، مهما ضغطت عليها الاسنان او الكسارات . والوسيلة المعتادة للتغلب على هذه المشكلة هي التخلي عن الحصاة والتراجع عن الواقع الحقيقي لكي نحيا في حلم من الاحلام . وهكذا فان العالم قد صنع في معظمه من نوعين من الناس : الاقوياء ، الذين يتمسكون بالواقع الحقيقي والذين يسلمهم هذا التمسك الى حالة من الاحساس بالبلاهة والافتقار الى الهدف . والمتهوسين النزقين ، الذين يخدعون أنفسهم ، الضعفاء ، الذين يستمدون احساسهم بالمعنى من الرفض والانسحاب المتعمد من عالم الواقع . اما الفئة الثالثة ، المكونة من اولئك الذين صمموا على استبقاء نوع من الاحساس بالهدف دون ان يسرفوا في خداع ذواتهم ، فعددهم بالغ الضآلة حتى يكادوا لا يوجدون .

ولكن لكي يكون للحياة معنى فلا بد لها ان تصبح قصة . اي انه ينبغي لكل لحظة ، بما انها حلقة في سلسلة من عمليات الوعي ، ان تكون مرتبطة بالحلقات التي مضت من قبلها . وهكذا فان الحياة

---

(١) هذا هو الفصل الثاني من كتاب كولن ويلسن « رحلة نحو البداية » الذي يصدر هذا الشهر عن دار الآداب مترجما بقلم سامي خشبة .

(٢) أطلق على هذا الكتاب في اميركا اسم « قامة الانسان » The Stature of man هـ. المؤلف . وأطلق عليه في الترجمة العربية اسم « سقوط الحضارة » .

تبدو دائما كمحاولة كتابة خطاب بينما المذياع يصخب والاطفال يصرخون والمنزل تلتهمه النيران . ان الواقع الحقيقي يطرق رؤوسنا مثلما تطرق أذننا آلة مصنع دوارة ذات آلف مطرقة ، لكي يدمر الجهد المبذول من أجل التركيز ومن أجل استبقاء خيط واهن من الدافع الى التحرك وسط الفوضى . وفي بعض الاحيان يسود الهدوء ، اذ يبزغ معنى ما في داخلنا ، ستشرق سعادة عجيبة ، نستطيع ان ننظر الى العالم وا نقول : « انني أحبك ، انني اقبلك » . وحينئذ تطلق الصفارة ، وتعود مضارب اللاعبين تتقاذف الكرة .

وأعتقد انني لا بد كنت أشعر بنوع من الحاجة الغامضة الى الانسحاب حتى في الطفولة الباكرة لانني استطيع ان اذكر كيف كنت احكي لاخي حكايات طويلة حيث يختفي صبي في كهف عميق تحت الارض او يزحف داخل أحد الادراج ويغلقه على نفسه ، ولو كان صندوقي هو رمز ذاتيتي بما يحتويه من اشياء قليلة ومؤونة كافية من الطعام .

وأعتقد انني كنت طفلا سهل التأثر بصورة غير عادية ، رغم اشمئزازي من اهتمام الآخرين الشديد بي . وكان انفعالي مقسما بالتساوي بين أمي وبين أخي باري . وكان كل الناس يقولون ان باري كان يختلف عني في كل شيء . فبينما كنت أنا ايجابيا كان هو خجولا ، وبينما كنت أنا عدوانيا كان هو سهل الاستسلام . وكنا دائمي الشجار ، وكنت انا اضربه دائما . ولكن ضربي له لم يؤد الا الى ان احبه اكثر ـ وأعتقد ان السبب في هذا كان التعارض بين مزاجينا . ولقد عشت دائما في دوامة من القلق والانفعال عليه . وفي أحد الايام ذهب يتنزه على ضفة نهر سور مع ابن عمي روي ، وظللت مقتنعا طول اليوم بانه غرق . وحينما عاد الى البيت متاخرا جدا في المساء كنت قد انفقت ساعات طويلة أطل من النافذة ، وصدري يمور بالكراهية لابي وأمي لسماحهما له بالخروج الى تلك النزهة . وفي مناسبة أخرى تاخر في العودة الى البيت من المدرسة ، وذهبت انا للبحث عنه سائرا اميالا عديدة ، وعثرت عليه في النهاية راقدا في عربة يد ويدفعه ويدفع العربة رجل عجوز . والحق انه كان يسير بالعربة في اتجاه المنزل ، ولكنني مع هذا كنت واثقا من انني قد انقذته من الاغتصاب على يدي مجنون جنسي (حدثت في تلك الفترة جرائم قتل عديدة للاطفال ـ وكان هذا حوالي عام ١٩٣٨ ـ وكان الكبار قد حذرونا بشدة من السير مع الرجال الغرباء) . واحتج باري بانه كان قد أصابه التعب وان الرجل العجوز عرض عليه أن يوصله ، ولكننا جعلناه بعد بأن يرفض في المستقبل كل عرض يصادفه من هذا النوع .

وبصرف النظر عن باري ، كانت حياتي مرتبطة تماما بأمي . كانت في التاسعة عشرة عندما ولدت ، وكانت تجد ان الحياة الزوجية في أثناء سنوات الكساد حياة مجهدة وغير مجزية ، وكانت هي وأبي على طرفي نقيض في مزاجيهما وتكوينهما النفسي . كان أبي قد صار مسؤولا عن أسرة أمه منذ قتل ابوه في عام ١٩١٤ . وكانت جدتي تساعد الاسرة ماليا عن طريق عملها في أحد المغاسل . كانوا يعيشون في حي فقير ، فشب أبي خشنا قوي الارادة ، ميالا الى الانفجارات العصبية او الانفعالية . وبينما كنت أنا أكبر ، كانت انفجاراته تزداد اقترابا من البواعث العصبية . وكانت لامي ايضا ارادتها ، ولكنها كانت مفرمة بالقراءة ، وكانت قد ورثت مزاجا رقيقا وهادئا من أمها . اما ابي فانه لم يقرأ في حياته كتابا ، وكان يتميز بميله الى انفاق لياليه في الحانة . فبعد ان يشرب نصف « دستة » من أكواب البيرة في ميعاد الغداء يوم الاحد ، كان يفضل ان يذهب الى فراشه دون ان يتناول غداءه ، فيغرق في النوم دون ان يخلع حذاءه . كان يعمل كثيرا ، ولكن أجره لم يكن أجرا مجزيا (كان يعمل لقاء ثلاثة جنيهات وعشرة شلنات في الاسبوع في الثلاثينات) وكان يشعر بانه يستحق أمسيته التي يقضيها في الحانة . وهكذا فقد كنا نعاني دائما من نقص النقود ، وكانت أمي تبكي دائما . وحينما تشعر بالتعاسة كانت تبثني شجونها ، ووصلت أنا الى اعتبار البيرة سر مأساة حياتنا . وكانت واحدة من أوائل الجمل التي تعلمت هجاءها ونطقها (في سن السادسة) هي : « ابي يشرب البيرة » . وكان أبي على حق حينما اعتبر هذه الجملة نقدا لعاداته ، فامرني بتمزيقها وعدم اعادة كتابتها .

ويبدو لي الآن ان أمي لم تكن وحدها هي التعاسة دوما في خلال طفولتي ، ولكنها قد بثت في وجداني حساسية مرضية بجعلي موضع ثقتها الذي تبثه أحزانها . وكانت لابي أيضا متاعبه ، ولكني لم أكن اعرف شيئا عن هذه المتاعب . وحينما كنت صغيرا جدا ، دأب على أن يأتي اليّ بالحلوى وان يلاطفني ويلعب معي ، ثم فجأة ـ او هكذا بدا لي ـ احسست بانه يبعدني عنه مسافة ذراع كاملة ، لانني أصبحت مزعجا ومتعبا . ولا شك انه قد شعر بان الحياة قد عاملته معاملة سيئة بأن جعلته والدا قبل ان يبلغ العشرين ، وباجباره على العمل في مصنع حقير للاحذية مقابل أجر لا يسد الرمق . وهكذا فقد كانت تنشب في البيت مشاجرات عنيفة ، انتهت واحدة منها على الاقل بأبي وأمي يتبادلان الضربات وسط الحجرة . وفي مناسبة أخرى صفعت امي ابي على وجهه في احدى الحانات . وكان ابي يقول ان امي لا قلب لها لانها كانت متباعدة وغير عاطفية بطبيعتها ، ووصفت أمي أبي بانه عاطفي ابله لان مشاعره كانت سهلة الاستثارة ولان احساسه بالشفقة كان من السهل ان يدفعه الى البكاء .

ومن الطبيعي انني كنت أتخذ جانب أمي وانني في صفها . ومن الواضح انني كنت قادرا حتى على ان اقص على المدرس في المدرسة حكايات المشاجرات في البيت وما نعاني من نقص في المال. (وقد ذكرتني أمي بهذا في اليوم السابق ، ولكنني لا احتفظ بأي ذكرى عنه) . وفي أحد الايام سألت امي عما أستطيع أن آخذه معي الى المدرسة (لافطار الضحى) فقالت لي : « ليس هناك طعام في البيت » . وأذكر كيف تملكني احساس مفزع بالمأساة طول الصباح : اننا نموت جوعا . وأردت ان اندفع الى المنزل لكي اواسي أمي . ولكنها ساعة الغداء كانت مرحة ولامبالية ، وحينما ذكرتها بما قالته اجابتني بانها انما كانت تعني انها لم تكن قد خرجت بعد لتشتري ما يحتاجه البيت من طعام ولم تكن تعني اننا مفلسون . ولا بد ان هذا الصباح كان صباحا بالغ التعاسة بصورة غير عادية بالنسبة لي ، وما زال بوسعي ان اتذكره بوضوح ، بعد خمسة وعشرين عاما ، وما زال بوسعي ان اتذكر احساسي بسخرية الحياة ، طالما كان من بالمدرسة مرحا مبتهجا بينما كنت انا على هذه الدرجة من الانقباض والكآبة .

وأظن انني لا بد قد ورثت قدرا كبيرا من حساسية والدي العاطفية . واستطيع ان أتذكر كيف ودعت وداعا مليئا بالبكاء معطفا قديما لي في حجرة تغيير الملابس بالمدرسة في اليوم الذي اخبرتني فيه أمي بانها ستخرج لتشتري لي معطفا جديدا .

وحينما كنت في الثامنة خرجت أمي لتعمل في مصنع محلي للجوارب ، وساعد هذا على تسهيل أمور الاسرة المالية . ولقد كرهت هي عملها ، فقد تركها دائمة الاحساس بالتعب . وارادها ابي ان تستمر فيه . وكان من الطبيعي ان يشعر بالسرور لانه اصبح قادرا على ان يدعو اصدقاءه الى كوب من البيرة دون ان يكون مضطرا الى الاقتراض من الحانة . وبعد عامين حلت هي المشكلة بان وضعت طفلا جديدا ـ هو أخي روندي . ولكنها في نفس الوقت ظلت تعمل وتطهو الطعام وتقوم بأعباء المنزل ، وتولي عنايتها لميزانية البيرة التي اثقلت كاهلها بعبء مضاعف .

انني أجد انه من الصعب أن أحكم على طفولتي بانها كانت طفولة

سعيدة . وأشك ان اكثر فترات الطفولة يزداد التشابه بينها الى درجة اكثر مما نعتقد . فالاطفال لا يتمتعون الا بقدرة محدودة جدا على استيعاب السعادة الطويلة الامد . وقد قال الدكتور جونسون ان السعادة والتعاسة يتشابهان الى حد كبير بالنسبة لكل انسان ، وان سعادة قائد عظيم انقذ بلاده هي تماما نفس السعادة التي تشعر بها فتاة ترقص رقصتها الاولى . وهذا يصدق على الاطفال بالتأكيد. انه من الممكن ان نصطنع لهم السعادة او التعاسة ، ولكن فتـــرات الطفولة التعيسة حقا والسعيدة حقا لا بد انها استثناءات نادرة .

واكثر الاطفال يتراوحون بين الحالتين ، بنفس المباهج ونفس مصادر الحرج والاحساس بالالم ، بنفس الكبرياء ونفس الحماس . ومـــن المؤكد انه ليس هناك سبب يدفعني الى ان اكون غير سعيد . ولـم يحدث أبدا ان عاملني أحد معاملة سيئة . لقد ضربت من حين الى حين ـ وغالبا بحزام أبي الجلدي ـ ولكنني كنت استحق هـــذا الضرب في العادة . ولقد كانت لديّ مجموعات من الممتلكات الصبيانية من المطاط الهندي (الذي نصنع منه المحاة) ومن الاقلام ومن الادوات الهندسية ، ومن المجلات والصور الفكاهية ، ومن سكاكين الجيب .

ولقد سرقت عدة مرات ـ وكان ما أسرقه عادة تناول الاطعمة مـــن المخزن او التفاح من البساتين المحلية المجاورة . ولقـد كنت اعتبـر دائما ماهرا في الشجار . وعادة ما كنت افوز في مشاجراتي . ولا أستطيع ان اذكر شيئا من لحظات الكشف الجنسي في طفولتـي ، لانني رغم ما أتمتع به من اهتمام طبيعي عند الاطفال باعضائي التناسلية، فان الجنس بهذه الصورة لم يكن يمثل شيئا مغريا بالنسبة لي . واذ اكتب الآن عن هذا الجانب ، أجد انه من الصعب أن أمنع نفسي من ان ابدو في صورة متزمت صغير ، ولكـــن لم تكن الرغبة في أن أكون « ولدا طيبا » هي التي منعتني من ان امارس التجارب الجنسية المنكرة على الاطلاق . لقد كنت أصغي بشيء من الاهتمام الى الاولاد الذين يتفاخرون بما كانوا يزعمون انهم فعلوه مع الفتيات ، ولكنني لم أكن أستطيع ان افلت من احساس ضعيف بالاشمئزاز منهم كمـا لو كانوا يلوثون ويدنسون انفسهم . ولا استطيع ان اتذكر الا حقيقة واحدة ، وهي انني كنت في خلال طفولتي « ضعيف الدافع الجنسي » بصورة واضحة ، وحينما شرح لي أحد أصدقائي في المدرسة كيف يأتي الاطفال الى العالم رفضت ان اصدقه . وانا اعتقد ان هـــذا النوع من النزعة المتزمتة انما هو امر يرجع الى المزاج الشخصـي ، وربما كان اكثر شيوعا بين الفتيات منه بين الفتيان .

ولقد كانت هناك باعتراف الجميع مظاهر قليلة لاشياء تظهر لي الآن على انها كانت انواعا من الانحراف الجنسي . لقد احببت ان ارتدي ثياب امي ، بما في ذلك ثيابها الداخلية . واعرف عن هـذا من خلال ما قاله « هافلوك اليس » ان هذا السلوك دائما ما يعبر عن ميل الى الشذوذ ـ مثلما يشير اليه ارتباطي العصبي بامي ومقتي لابي . وفي الحقيقة ، فانه لم يحدث ابدا ان لاحظت اي اثر للشذوذ الجنسي في تكويني في اي فترة من الفترات ، رغم ما سمعته من حين الى حين من بعض الاصدقاء المصابين بالشذوذ الجنسي . فاذا كان لديّ مثل هذا الجانب ، اذن فانني قد فشلت في ملاحظته . ولقد ظهرت لديّ أيضا ميول واضحة نحو النزعة السادية ، هذه الميول التي برزت في عدم التسامح بصورة عنيفة ازاء كل ما يبدو لي نوعا من الضعف او الحماقة . وقد كانت هناك فتاة صغيرة تسكن فـي المنزل الواقع عند ناصية شارعنا ، وكانت كثيرا ما تثير لديّ نوعـا من الدافع السادي لانها كانت تبدو لي على شيء من الرخاوة ومسرفة في « انوثتها » الطفولية ، وبالغة الافتقار الى الحيوية ، هذه الصفات التي تحولت لديها الى سحر سكري حلو المذاق قوي الاسر . وقـد تعودت ان اقرصها اذا لم يكن ابواها ينظران الينـا ، ثم ازعم ان ليس لديّ أدنى فكرة عن سبب بكائها .

وقد أدت بي هذه النزعة السادية من حين الى حين الى أسوأ « العلق » التي نلتها في حياتي . كان ذلك في الخامس من نوفمبر ، وربما كنت في السادسة او السابعة من عمري . وكنت انا وباري قد توقفنا لنتكلم مع بعض الاطفال الصغار ، وشعرت انا انهم «بلهاء» . ولعبنا بهم لبعض الوقت ، ثم همست لباري اننا سنضربهم معـــا باشارة مني . وأعطيت الاشارة ، ولكمناهم انا وباري ثم جرينـــا كالريح . وخرج والدا الاطفـــال من منزلهم وشاهدا « صدارينا » الاحمرين يختفيان وراء الناصية . وبعد عشر دقائق وجدونا نشاهد نارا أشعلناها في مساحة من الارض المهملة ، فذهبوا بنا الى والدينا. وربطنا الى السرير ، وقام علينا أبي بحزامه الجلدي . ورغم ألمي ، فقد صرخت بانه ليس لباري ذنب فيما حدث ، وبذلك فقد أطلـق سراحه بعد بضع ضربات . أما أنا فقد ضربني أبي حتى كلّت ذراعه. وفي الصباح التالي استدعتنا ناظرة المدرسة ، وكان علينا ان نقول اننا آسفان واننا لن نفعلها ثانية .

لقد بدأت في ممارسة الملاكمة حينما كنت صغيرا الى حد بعيد. وفي طفولتي كان أبي من ابطـــال المشاجرات ، وكثيرا ما قص عليّ كيف كان يدافع عن شقيقته ليلي ضد صبي اكبر منـه بكثير وكيف ضربه وهزمه . وفي عقده الثاني كان ملاكما هاويا جيدا ، وكان أنفه قد تفلطح وأذناه قد انبسطتا بتأثير اللكم . بل لقد كان هناك حديث يدور حول احتمال احترافه الملاكمة ، ولكنه لحسن الحظ خسر المباراة التي كانت ستحدد مستقبله . بيد انه كان يتكلم كثيرا عن مشاجراته ومبارياته في طفولته ، وكان يعطيني دروسا في الملاكمة الدفاعية ، هذه الدروس التي لم أستفد منها أبدا ، طالما انه لا يوجد طفل يفكر كثيرا في قواعد الملاكمة او يهتم بها حينما يكون وجها لوجه مـــع غريمه . لم يكن لديّ شيء من التعاطف او القدرة على الاستجابة الى اكثر ما يثير حماسه ، فقد كان نجما من نجـــوم كرة القدم ، وبطلا من ابطال السباحة ، وكان يستمتع بطلاء حذائه و « تلميعه » وبفرق شعره وترتيبه . وكانت احدى اقاصيصه المفضلة ، تحكي عن كيف نودي عليه امام المدرسة كلها حتى يستطيع الناظر ان يظهـر امام التلاميذ المثل الاعلى في النظافة والترتيب . اما انا فقد كنت كسولا وغير مرتب . وقد كرهت كرة القدم لانني لم أستطع ابـــدا ان اقترب من الكرة لكي اركلها . وقد احببت الماء ، ولكنني لم اصبح سباحا سريعا ابدا ، وما تزال قدرتي محددة بالضربات البطيئة مـن الذراعين . ولكنني كنت قادرا على الشجار والقتال . وقد تعودت على أن أقذف بنفسي على خصومي وقبضتاي مضمومتان مشرعتان ، وكان المعتاد ان ينسحبوا من مواجهتي . غير انني ما كنت احب الشجـار او القتال ، وقد سمحت لنفسي احيانا بأن أهزم بدافع من الجبن . واحيانا ، كنت أدهش من نفسي حينما أفقد اعصابي فاضرب شخصا كنت أخشاه وأخاف منه ، مثلما حدث ذات مرة حينما اندفعت نحو صبي صغير يدعى تيش ، وكان هو « فتوة » المدرسة . ولكنني بعد بضع سنوات سمحت لنفس هذا التيش بأن يصفعني على وجهي بسبب شيء من سوء الفهم السخيف ، ورغم انني كنت اتمنى له المـــوت فقد خشيته وخفت ان ارد له الصفعة .

أما السرقة فقد كانت نوعا من اللهو غير الضار حتى اصبحت في العاشرة ، حينما علمني شخص ما كيف اختلس الاشياء من محل « وولورث » وغيره من المحلات الكبيرة . وأظن ان هذا الشخص كان هو ابن خالتي جون ، الذي كان له تاثير مستمر كبير على طفولتي . فرغم انه كان يصغرني بعام كامل (وهذا الفارق بالنسبة للاطفال يعادل خمس سنوات) فانه كان ذا ارادة قوية وشخصية لامبالية ، الامر الذي جعله رفيقا ممتازا لي . كان يحب تسلق الاشجار ، بينما انا كنت أخاف من الاماكن المرتفعة وأكره الاشجار . وقد كان خبيرا بعملية تسلق الاشجار خلسة لسرقة ثمارها من التفاح ، وكان يخترع انواعا من العلل التي تيسر له الحصـــول على اجازات طويلة من المدرسة . ولم يكن لجون سوى خطأ واحد خطير ، فقد كان عـلى استعداد لان يتنمّر فجأة او ينقلب على الاتجاه الذي كان يتخذه دون مبرر واضح ، ثم يندفع في الاتجاه الجـديد لا يلوي على شيء ،

او يرفض القيام بشيء كان قد وعد بالوفاء به . ولكنه كان رفيقا طيبا حينما يكون في حالة معنوية جيدة ، حتى اننا كنا نغفر له مثل هذه الهفوات . وكانت العائلة تعتبر جون مثلي مهرا ، ولذلك فقد كان هناك نوع من المنافسة المعتدلة ـ ولكنها منافسة مستمرة ـ بين والديه وبين أبوي . وقد زادت هذه المنافسة بسبب عامل قديم ، وهو ان أمي وشقيقتها الخالة دورا ، كانتا تغيران احداهما من الاخرى في طفولتهما .

وقد اعتدت انا وجون ان نسير الى المدينة ، اذا لم نكن نملك أجر ركوب الباص ، ثم نتجول في المحلات الكبيرة ، نسرق سكاكين الجيب ، وهدايا عيد الميلاد ، وأي شيء آخر لا نصعب سرقته . ليس للاطفال ضمير بالطبع . انهم ابرياء كالمتوحشين . وهم مثل المتوحشين يحبون الدمى والحلى الصغيرة والادوات الضئيلة . ولم يحدث ابدا ان شعرت بوخز الضمير بسبب السرقة ـ كما لم يحدث ابدا ان شعرت بشيء مثل هذا حينما كنت اتذكر ما سرقته . ولقد كنت مقتنعا بان كل اطفال ليستر جديرون بان يهبطوا على المحلات الكبيرة كالجراد لو انهم تأكدوا من ان احدا لن يمسك بهم . وقد حدث ان اشترك ابي في طفولته مع مجموعة من الصبية في التسلل الى محل كبير ـ ربما كان محل وولورث ـ من خلال السقف . واعتقد ان بعضهم قد قبض عليه . وقد حلمت الكثير من احلام اليقظة المتعلقة بهذه القصة عن ابي ، وانفقت ساعات في تخيل تفصيلي عما كان يمكن ان احمله لو انني تمكنت من اقتحام محل وولورث في الليل . كانت هناك قطع الشوكولاته ، وافلام الحبر ، والنظارات المكبرة ، وسكاكين الجيب ، وأدوات المنظر الى الخلف دون ان تدير رأسك (كانت تدعى « سيباكروسكوب ») وقطع من المعدن تصدر ضجة تشبه صوت تحطم الاكواب الزجاجية حينما تسقط على الارض . وقد كنت ايضا فخورا بشكل خاص بكتاب صغير احمر اللون كنت قد سرقته ويدعى « اسأل عن كل شيء » او مثل هذا العنوان ، وكان يقدم كل انواع الاحصائيات والمعلومات من مثل : « هل تعرف اعلى سبع بنايات في العالم ؟ » او « هل تعرف اطول انبوب في العالم ؟ » .. الخ .

ولحسن الحظ ، لم يحدث ابدا ان قبض علي ـ باستثناء مرة واحدة بعد سنوات طويلة من ممارسة السرقة ، ولكنهم سمحوا لي بالانصراف بعد ان وعدت ألا أعود الى السرقة مرة ثانية . وكان السبب في هذا الحظ السعيد هو انني رغم ما كان يستبد بي من رغبة شديدة في الحصول على سكاكين الجيب والدمى ، فانني ايضا كنت ارغب بشدة ألا يمسك بي وانا اسرق ، وكنت اتخذ كافة اسباب الحذر والحيطة .

واذ أنظر الآن الى الماضي ، يبدو لي ان السرقة قد سيطرت على طفولتي ، ولم تكن ابدا بعيدة عن افكاري . وبعد بضع سنوات اكتشفت ان الافاصيص الكثيرة عن رجال العصابات تباع بسعر مرتفع ... واكتشفت دكانا لبيع الكتب القديمة او المستعملة كان يبيع الرواية الواحدة من روايات بن سارتو او داركي جلينتو ذات الغلاف الورقي والتي بلغ ثمنها الاصلي شلنين كاملين مقابل بنس ونصف فقط . واكتشفت ايضا مكتبة كان صاحبها يستغرق بضع دقائق احيانا حينما يخرج من وراء مكتبه في مؤخرة المحل كلما دخل زبون الى المكتبة . وهكذا فقد تعودت ان آخذ الكتاب من احدى المكتبتين لكي اذهب به الى الاخرى . ولكنني لم اكن اضع الكتاب ابدا في جيبي ولا في حقيبتي المدرسية ، فقد كان في هذا خطورة بالغة . فكنت ألقي بها دائما تحت ابطي من داخل القميص . وقد ثبت لي ان هذا الاحتياط كان عملا حكيما . فقد شكت المرأة التي تدير احدى المكتبتين في انني أسرق أغلفة الكتب ، وفي أحد الايام طلبت مني ان نرى ما في حقيبتي . وبدا عليها الانزعاج وخيبة الامل حينما لم تجد سوى كتبي المدرسية . ولكنني نظرت الى هذا الموقف باعتباره تحذيرا من « الحريق » المقبل ، فتنازلت عن عملية بيع روايات بن سارتو كوسيلة للحصول على دخل طيب .

ومما لا شك فيه ان مثل هذه التجارب ليست شيئا نادر الحدوث بين الاطفال ، وأنا أذكر هذه التجارب هنا لانني اعتقد انها لا بد ان تكون وثيقة الصلة بتطوري ككاتب . ان الكذب والخداع هي تجارب الطفولة المعتادة ، ولكن الطفل لا يكذب الا على من كان صاحب سلطة مباشرة عليه ، مثل الوالدين او المدرسين . على ان اعتياد السرقة شيء مختلف ، فالسرقة هنا موجهة ضد سلطة المجتمع ، وصاحبها يتعرض لخطر عقاب أشد وطأة وربما كان تطور جان جينيه اكثر شيوعا مما نظن ـ أعني تطوره من لص الى متمرد والى نوع من « اللامنتمي » . وربما كان من الممتع ان نحصل على سجل للنشاطات الاجرامية لكل الفنانين والكتاب في المائة سنة الاخيرة . لقد آمن ابناء العصر الفيكتوري بأن جورج واشينجتون وجورج فوكس وجلادستون كانوا هم الانماط الثابتة لقادة الرجال في المستقبل . « أبي ، لا يمكنني ان اكذب كذبة واحدة » . كان هذا هو الطفل النموذجي . ولكنني كنت ميالا دائما الى الشعور بانه ربما كان شارلي بيس وجيم حامل القلم هما النموذج الاكثر صدقا للروح التي تصنع التقدم .

انني احاول جاهدا ان انفذ بعقلي عائدا الى الخاصية الاساسية لطفولتي . وقد كان أحد العناصر الاساسية في هذه الطفولة هو احتقار الكبار . كانوا يبدون وكأنهم لا يفهمون جيدا ، وكان يساء تصوير علاقاتهم بالاطفال الى درجة لا تصدق . ولهذا فان عددا قليلا منهم هم من ظهروا بمظهر طبيعي . لقد أدركت ذلك السؤال الذي طرحه ج. ك. تشيسترتون : لماذا يملىء العالم الى هذا الحد بهذا العدد الكبير من الاطفال اللامعين والكبار الفاشلين المعدومي القيمة ؟ ولم يحدث ابدا ان قابلت شخصا بالغا كبيرا استطعت ان اعجب به دون تحفظ ـ او ان افكر فيه قائلا لنفسي : اود ان اكبر لاصبح مثله. وربما كان هذا بسبب ان كل الكبار الذين كان يمكنني ان التقي بهم لم يكونوا يملكون من المال اكثر مما تملكه أسرتي . فبالمقارنة الى اكثر أقارب أمي وأبي كان يبدو اننا سعداء الحظ . فحينما كنت في الرابعة من عمري انتقلنا الى مقاطعة كولمان رود ، وسكنا في منزل يملكه المجلس البلدي كانت له حديقة واسعة نسبيا تحيط به من الامام ومن الخلف ايضا . كانت الطرق عريضة تحف بها الاشجار وخطوط الحشائش الخضراء ، وكانت حجرات المنزل تبدو واسعة مضيئة . وكان اكثر اقارب والدي يعيشون في المنطقة التي ولد هو بها ، في منازل صغيرة مزدحمة ليس لها سوى شرائط ضيقة من الحدائق الخلفية ، وطوال طفولتي ، لم يحدث ابدا ان ذهبت الى منزل جعلني اتمنى لو اننا سكناه . وربما اختلف الامر لو انني قابلت بعض الاثرياء ، ولحسن الحظ لم اقابل احدهم مطلقا . ولذلك فقد ظللت متحررا من أي طموح اجتماعي وبقيت جاهلا تماما بنفسي باعتباري عضوا في طبقة اجتماعية . اما الطموح الوحيد الذي شعرت به ، وكان على علاقة بالكبار ، فهو طموحي الى ان لا اصبح ابدا مثل أي واحد من الكبار الذين عرفتهم .

ولقد كنت بطريقة غريبة ما ، على شيء من التدين . فحينما شرحت لي أمي للمرة الاولى ان يسوع قد صنع العالم ، نظرت الى كلامها باعتباره نوعا من المعلومات الصادقة التي فسرت لي اشياء كثيرة . وحينما قالت لي ان يسوع سوف يسمعني اذا اقسمت او حلفت ، حاذرت ان اقسم او احلف ، وكنت اصلي طالبا المغفران اذا سهوت عن ذلك . ولقد كنت كثير التعجب من العالم ، وكنت كثيرا ما ألتقي بشذرات متفرقة هامة من المعلومات التي نسي الكبار أمر ذكرها دون تفسير لذلك . فعلى سبيل المثال ، كنت في السابعة حينما تلقينا اول درس لنا في التاريخ ، وسمعت للمرة الاولى كلاما عن العصور التي سبقت حياة البشر على الارض ، وعن الديناصورات

والنمور ذات الانياب الشبيهة بالسيوف . وبدا لي مدهشا ان احدا لم يذكر لي شيئا عن كل هذا من قبل . وفي احدى دوائر المعارف (اظن انها كانت دائرة معارف الاطفال التي ألفها آرثر ميس) رأيت صورة مأخوذة من رواية جول فيرن « عشرين ألف فرسخ تحت سطح البحر » يبدو فيها الكابتين نيمو وهو يكتشف قارة اطلانتيس . ورحت اسأل الاسئلة عن اطلانتيس ، ومرة ثانية أصابتني الدهشة لان احدا لم يكلف نفسه عناء اخباري بهذا الموضوع المثير .

وكانت جدتي مؤمنة بالروحانيات ، وكانت تحضر جلسة لتحضير الارواح في مساء كل يوم أحد . وربما كانت هي التي اجابت على سؤالي عما يحدث بعد الموت بأن أسمعتني ملخصا قصيرا لافكار سويدنبورج وكونان دويل وسير اوليفر لودج . واضفت انا هذه الشذرات المتفرقة من المعلومات الى ما كنت أعرفه من شذرات سابقة من التاريخ الطبيعي ، والخيالات الوهمية والتعاليم الدينية التي كونت صوري الخاصة عن الكون . كانت الصورة تتكون ، وكانت تشرع في الامتلاء . ان البحث عن « نسق فكري » او عن نفسير للعالم يبدو كما لو كان يرجع عندي الى أبعد ما أستطيع ان اتذكره . بل انني قد شرحت هذه الصورة باسهاب لاصدقائي في المدرسة . ولكنني كنت واثقا من ان الكبار يمتلكون كل الكمية التي تعرفها البشرية من المعلومات . ولما كنت أكره كوني طفلا فقد اردت ان اكبر وشرعت في استيعاب هذه المعلومات في جرعات كبيرة . وفي أحد الايام في بداية الحرب ، سمعت أبي وأحد أعمامي يتحدثان عنها ، وشرح ابي بوضوح كيف سنكسب الحرب . قال اننا سنهزم هتلر في شمال افريقيا لان الالمان غير معتادين على حروب الصحراء ، بينما غزا البريطانيون الهند ومعظم افريقيا . وسيجبر هتلر على سحب قواته من فرنسا ، وسنغزو نحن اوروبا مرة ثانية . واعتمدت نظريته ايضا على جبروت القوة البحرية البريطانية ، وعلى خط ماجينو الفرنسي ايضا ولكن بطريقة نسيتها الآن . أصغيت الى هذا الحديث بانتباه عظيم ، وطوال اسابيع بعد ذلك رحت اشرح لكل من اقابله كيف ستكسب انجلترا الحرب . كانت هذه النظرية نوعا من المعلومات تضاف الى ما لدي ويعتمد عليها ويوثق بها مثلما أعتمد وأثق بالقصص التي تتحدث عن يسوع والدينوصورات وقارة اطلانتيس ، وحينما كنت اتحدث عن هذه النظرية كنت احذر أصدقائي بخطورة من تكرارها على مسمع من أي شخص ، حتى لا يسترق السمع أي جاسوس الماني فيحذر هتلر .

واعتمدت على هذه المعلومات طويلا لانني كنت في طريقي الى العاشرة من عمري او نحوها . فالمعلومات هي المعلومات ، وحينما يتراكم لديك منها ما يكفي فسوف تكون عارفا بكل شيء . وما زلت أذكر كيف اصابني الرعب حينما عرفت من امي ان والد ابن عمي جون كان ملحدا . ونحديته ان يناقشني في فكرته في اول فرصة أتيحت لي ، ولكنه اكتفى بأن أقر لي بالحاده ، فاعترضت أقول : « ولكن اذا لم يكن يسوع هو الذي خلق العالم ، فمن عساه يكون قد خلقه ؟ » وأجابني : « لا أعرف . ربما لم يخلقه أحد » . ولست واثقا مما اذا كانت هذه هي اول مرة اتبين فيها انه من المحتمل ألا تكون المعلومات معلومات حقا ـ وانها ربما لم تكن غير رأي صاحبها او وجهة نظره ، وان المشكلة هي التمييز بين المعلومة والرأي . وأحسستني مثل رجل شيد منزلا ثم قيل له ان نصف احجاره جوفاء هشة وان المنزل سوف ينهار عند اول عاصفة .

* * *

ولكنني بهذا ابتعد عن قصتي . لقد كنت احاول ان ابين ان الدافع الكامن وراء معتقداتي الدينية هو نفسه الدافع الذي جعلني أسرق من محل وولورث . لقد برزا كلاهما مما لا يسعني ان ادعوه الا نوعا قويا من الهوس . كانت المعرفة نوعا من القوة ، وكانت الممتلكات المادية نوعا آخر . ولقد قرأت ذات مرة مقالا في مجلة للصبيان يصف الاشياء التي ينبغي على كل الاولاد ان يحملوها في جيوبهم . كانت هذه الاشياء تتكون من سكين للجيب ، وكرة من الخيط القوي ، وقطعة من المطاط ، واختتم الكاتب مقاله بقوله ان الولد بهذه الاشياء سيكون مستعدا لمواجهة كل طارىء ممكن من طوارىء الحياة . وعلى الفور جمعت الإشياء المطلوبة ، وظللت احملها معي في كل مكان طوال سنوات ، حتى اكتشفت انني لم استخدم اكثرها مطلقا . لقد بدت الحياة خطرة وغير مفهومة ، ولا بد من انخاذ كل اجراء ممكن لمواجهتها .

ومع هذا فلا بد لي أن أعترف بانني قد واجهت بضع تجارب جديرة بأن تنتج نوعا من الاشمئزاز من العالم . فعلى سبيل المثال، حدث أن ربح أبي سكينا كبيرا للجيب في رهان وسمح لي بأن آخذها معي في اللعب . كنت حينئذ في الرابعة من عمري تقريبا . ورآها معي ولد كبير كان يعمل لدى أحد القصابين فسألني ان كان يستطيع افتراضها . ورفضت اعطاءها له ، ولكنه استخدم كل ما لديه لاقناعي وقال لي انه لا يريد الا ان يقطع بها اطراف قطعة من اللحم . وأخيرا أقرضته اياها ، فذهب بها ، وانتظرته عند الناصية لساعات طويلة ، واخيرا عدت الى البيت باكيا . ولم تسترد السكين ثانية رغم ان أبي سأل عن الصبي في كل دكاكين القصابين المجاورة . ومررت بنفس هذه التجربة بعد ذلك بسنوات ، حينما ذهبت مع صديق الى برادجيت بارك على بعد عشرة اميال من ليسستر. وسألنا سائق احدى الشاحنات ان نساعده في شحن كمية من الصفائح ، ووعدنا لقاء ذلك بأن يوصلنا في العودة الى ليسستر في المساء حينما يكون عليه ان يعود . وعملنا في الشحن باهتمام لمدة ساعة ، ثم انطلق هو بسيارته . ولكن رغم اننا انتظرنا حتى جاء آخر باص في المساء ، فانه لم يعد ابدا . وفي المرتين ، حينما تبينت انني قد خدعت ، أحسست بغضب عاجز ، وحلمت بأنواع سادية من العذاب ، ولكن هذا الاحساس كان قصير الامد .

أما احتكاكاتي بأنواع من الخيانة اكثر شرا ـ وذات انحراف جنسي ـ فلم تزعجني كثيرا . فحينما كنت ضئيل الجسم جدا اقترب مني شاب وطلب أن ألعب معه . واكتشفت ان فكرته عن « اللعب » كانت جنسية تماما ، واستمرت لمدة ساعات عدة . وحينما سمح لي بالذهاب أخيرا ، ذهبت الى البيت وأخبرت والدي ، وعلى الفور وضعني أبي أمامه على دراجته وخرجنا للبحث عن الشاب ، ولكنه كان قد اختفى . وصدمتني هذه الواقعة كشيء غريب ، ولكنها لم تكن شيئا مخيفا ، لقد اضجرتني كل تفصيلاتها .

وربما كانت لواقعة ثانية نتائج اكثر خطورة . فحينما كنت في السابعة او الثامنة من عمري ، حدث أن كنت في الطريق الى المكتبة العامة مع باري وصديق آخر حينما اقترب منا رجل يركب دراجة وسألنا ان كنا نريد ان نحصل على بطاقات السجائر . وكنا جميعا قد سمعنا الكثير من التحذيرات من ان نتكلم مع الرجال الغرباء ، ولكنني كنت طماعا . وصممت على ان اترك الاثنين الآخرين (اللذين رفضا المجيء) وذهبت مع الرجل . واخذني الرجل الى منطقة بعيدة ، ثم الى غابة صغيرة . وحينما دخلنا الغابة ، رأى رجلا يقف امام بوابة ويراقبنا . وهكذا فحينما توغلنا في الغابة ، أسند هو دراجته الى احدى الاشجار وطلب مني ان انتظره وانصرف . وحينئذ شعرت بالانزعاج ، لانه كان قد اخبرني ان بطاقات السجائر كانت مدفونة في مكان ما . فزحفت وراءه ، ورأيته مقعيا على يديه وركبتيه بالقرب من حافة الغابة يسترق النظر الى الرجل الذي كان يراقبنا. وتملكني الخوف ، فتسللت مبتعدا من الجانب الآخر للغابة وجريت كأرنب كبير . وبعد عدة دقائق قابلت باري وصديقه اللذين كانا قد جاءا للبحث عني مقتنعين بأنني قد قتلت . وربما كان هذا هو ما سيحدث ، او ربما لم يكن في نية الرجل سوى الاعتداء الجنسي.

ولكن لو ان الخطر كان قد اقترب مني لما شعرت به . فلم اتوقع ابدا ان يحدث لي شيء فظيع ، ولم يحدث ابدا ان وقع لي شيء من هذا القبيل .

ورغم هذا فقد كنت اعرف ان العالم يمكن ان يكون مكانا مليئا بالخيانة والغدر ولقد حدث دائما ان ضربني او استأسد عليّ صبية يأتون من الاحياء القذرة الذين ربما كانوا يتشجعون بخوفي الواضح منهم . ولذلك ، فطالما تعودت في السرير وفي اثناء الليل ان احكي لباري قصصا طويلة عن صبي خارق القوة يدعى توم بيري ، يقطن قلعة في براري الغرب ويقود عصابة من رعاة البقر تضم ابطالا مثل باك جونز وكين مابنارد ، وانه كثيرا ما أنزل الهزيمة بعصابات صبية الاحياء القذرة المهلهلين ، بيد واحدة .

وفي خلال طفولتي ، كنت أدرك دائما هذين الدافعين المتنافضين : الشك في العالم والاحساس بالحصانة والثقة الكاملة . ويبدو لي ان هذا الدافع الاخير دافع هام طالما انه وثيق الصلة بالثقة التي تأتي من التدليل ، ويمكنني أن أتذكر ان عددا كبيرا من المناسبات التي حدث فيها ان اردت ان افعل شيئا ما ، وفعلت ما اردته بسهولة ادهشتني ـ سهولة غريبة بطريقة ما على الجانب الذاتي والمستبطن مني . وحينما كنت طفلا في الخامسة لقنني أبي وجدّي بعض القصائد والاغنيات ، ونشيدا كان المفروض ان يكون جزءا من حديث « يوري ريب » الذي كتبه ديكنز (وكنت أفترض دائما انه رجل صيني حتى قرأت رواية « دافيد كوبرفيلد » أخيرا فاكتشفت ان ديكنز كان يكتب الاسم « يورياه هيب ») . وكان يطلب مني أن ألقي تلك القصائد والاغنيات وانا واقف فوق مائدة حينما يزورنا بعض الضيوف . ولم يكن يطلب ابدا من أخي باري او من ابناء عمي الكثيرين ان يفعلوا نفس الشيء ، لكنني كنت لا أملّ الشعور بالسعادة لوضعي على المائدة واستئثاري بكل الانتباه . ففي هذا الوضع ، كان بوسعي ان انقلب خطيبا متحمسا يطوح بيديه وأعلن انني « رجل متواضع » ، وأختتم خطبتي بأن أهدد شخصا ما بأن أعتصر منه الحياة كما تعتصر البرتقالة . وبدلا من كل هذا كنت أغني الاغنيات المضحكة ، وهناك بوجه خاص اغنية تقول « الوقوف خارج مستشفى المجاذيب » . وفي سنوات مراهقتي ، وحينما كنت أنظر الى الوراء لاتأمل تلك النشاطات المختلفة ، كنت أجد انه من غير المفهوم انني لم أكن اشعر بالخجل .

وهناك وقائع معينة من حوادث تسلق الاشجار والشاجرات تبدو انها تنتمي الى نفس الفئة النفسية . أتذكر الآن صبيا كان الجميع يخشونه ، وفي أحد الايام في المدرسة اخذ يضايقني ، فطرحته أرضا في فناء المدرسة بسهولة مضحكة . ان فعل الشجار انما كان ينتمي بصورة ما الى سلسلة مختلفة من الاحداث عن تلك الاحداث التي كونت شخصيتي الطبيعية . كان الشجار يبدو حتميا ، ولا يسبب خطرا ، مثل السير اثناء النوم .

ومع هذا فقد عرفت ان هذا الاحساس بالثقة قد يكون احساسا مخادعا . فبالقرب من بيتنا كانت هناك قنطرة عبر مجرى صغير ، وكان الترام يمر من فوقها . وحين ألغي الترام أسيء استخدام تلك القنطرة حتى لم يبق فيها غير قضبان الحديد عبر المجرى المائي . وفي أحد الايام تسللت لكي أسير فوق القضبان فأخذت انقل قدمي محاذرا خطوة بعد خطوة . وبعد ان عبرت المجرى دون اي حادث ودون ان اواجه خطر السقوط ، عبرت مرة ثانية ولكن بخطوة أسرع من الاولى .واخيرا اصبحت قادرا على الجري فوق القضبان بسرعة تقرب من سرعتي في الجري على الارض الصلبة . وفي أحد الايام كنت أسير محاذرا فوق القضبان ، وكنت أتحدث مع احد الاصدقاء كان يسير على شمالي ، ولما أدرت رأسي الى اليسار لم أعد استطيع ان ارى موقع قدمي فخطوت خطوة خاطئة . وحاولت ان احافظ على توازني ، ولكن هذه التجربة علمتني ما في المغالاة في الثقة من خطورة . وبعد بضعة ايام من هذا الحادث سقط احد اصدقائي من فوق القضبان وآذى نفسه ايذاء بالغا لاصطدامه بالصخور المدببة تحت المجرى ، الامر الذي ضاعف احساسي بخطورة السير فوقها . فكففت عن السير فوق القنطرة المحطمة .

هذه وقائع تافهة ، ولكنني أحاول ان اضع اصبعي على ما يكمن وراءها . هل ينطلق رجال العمل الخاطف ـ من نوع نابوليون وهتلر ـ في طريق حياتهم كلها بهذه الطريقة التي تشبه نشوة السير اثناء النوم والتي لم أجربها انا سوى مصادفة ومرات قليلة ؟ فاذا صح هذا فما هو معنى النشوة ؟ أيكون مثل هؤلاء الرجال ـ مثلما قد يقول بيتس ـ أدوات في أيدي قوة روح التاريخ ؟ من المحتم اننا نعيش الجانب الاعظم من حياتنا طبقا لحساب دقيق ، بروح الحذر والقلق ، وفي استعداد دائم لمواجهة الهزيمة او على الاقل لمواجهة لحظات التراجع المحزنة . ان عالم الامراض العصابية والنفسية منعكس في كل فنوننا وآدابنا ، وقد يبدو ان هذا العالم هو جوهر وعينا في القرن العشرين . وحتى بالنسبة للمتشائم الكامل ، المؤرخ الذي ينظر الى شبنجلر او الى توينبي باعتبارهما « يقرآن على اوراق الشاي » فعلى الاقل لن يكون هناك شك في ان بلايين من العقول المراقبة انما تعكس روح هاملت ، ولو لم يكن هناك معنى حقيقي يكمن وراء عبارة « روح العصر » . الامراض العصابية هي الامراض التي تنشأ من اليقظة الاكثر مما هو مطلوب . والناس الذين فقدوا القدرة على النوم قد يشعرون بنوع من الحسد الخرافي تجاه من يسيرون اثناء نومهم . أهذا هو السبب في اننا نعيش في عصر الديماجوجيين و « المعبودات الشعبية » ، في عصر هتلر ومارلين مونرو ؟ أتكون حروب القرن العشرين هي انعكاس الاحتياج الى آلهة ؟ ان رجل الفعل الخاطف ، الذي يتحرك بدقة فائد سيارة السباق ، لا يستطيع ان يكف عن ادراك انه يتجنب الموت بنعمة الآلهة وحدها (وقد سبق ان مارست نفس الاحساس حينما اضطررت الى قيادة السيارة في الليل لمسافات طويلة) . ومن هنا فان الخطر يصبح طريقة لاعادة تأسيس الاحساس بالآلهة وتهدئة الذات المجهدة المتوترة واغراقها في نشوة السائر في النوم . ومن هنا يبرز هؤلاء الشواذ المدهشون من مثل ت. ي. لورنس ، وسانت اكزوبري وارنست هيمنجواي ـ بل وحتى المرحوم جيمس دين . ويصبح الموت العنيف ايضا امرا حتميا ولا يمكن تجنبه .

ومع ذلك ، فان رمز طفولتي لم يكن ابدا هو ضجيج السباق الصادر عن لورنس او سانت اكزوبري ، ولكنه كان حوض ديوجينيس . اي أن أرسي لنفسي دعائم استقلال كامل ، مثل شاب يدعى هابكري هودج حكيت قصته في مجلة « الروفر » او في مجلة اخرى مشابهة من مجلات الاولاد التي كنت أفضلها ، وهو الذي كان يعيش في برميل ويصطاد السمك بأن يربط خيط الشص في اصبع قدمه ثم يغرق في النوم . وحينما أفكر الآن في طفولتي مرة ثانية ، واحاول ان استخلص ذلك الدافع مرة ثانية ، يبدو لي ان حياتي قد وقعت تحت سيطرة الرغبة في الوصول الى نقطة معينة ، لا مناص من بلوغها.

ترجمة سامي خشبة

مكتبة النوري

دمشق ـ تجاه البريد العام

وكيلة منشورات دار الآداب وكبرى دور النشر اللبنانية والعربية في القطر السوري .